صورة الحركي في رو اية معزوفات العبورلمعمر حجيج– قراءة ثقافية -

The image of the Harki in the novel of recitals of passage (Ma'azoofat Al-obour) by Maammar Hadjidj

عيسى قدور[1,*]، أحمد بزيو[2]، اسماعيل سعدي[3]

[1] م. الجامعي بريكة، (الجزائر)، aissa.kaddour@cu-barika.dz

[2] جامعة باتنة01، (الجزائر)، ahmed.bezziou@gmail.com

[3] م، الجامعي بريكة (الجزائر)، smailmsila@gmail.com

مخبر سيميولوجيا المسرح بين النظرية والتطبيق، جامعة المسيلة.

تاريخ الإيداع: 2024/01/17 **تاريخ المراجعة:**2024/05/22 **تاريخ النشر:** 2024/06/30

ملخص:

تحاول هذه الدراسة العلمية تسليط الضوء على صورة الحركي أثناء الفترة الاستعمارية، في رواية معزوفات العبور نموذج الدراسة لصاحبها معمر حجيج، وهي رواية ذات حمولات ثقافية وفكرية، تحفز الدارس لاتخاذ القراءة الثقافية كمنهج نقدي لدراستها بهدف إماطة اللثام عن الأنساق الثقافية الثاوية في المتن الروائي، سواء كانت ظاهرة أو مضمرة بالاستعانة بمقولات علوم إنسانية أخرى: كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والتاريخ وفق ما تحتاجه القراءة الثقافية من هذه العلوم وانفتاحها عليها.

الكلمات المفتاحية: الصورة، الحركي، الأنساق، الثقافة، معمر حجيج.

***Abstract**:This scientific study attempts to highlight the image of the Harki during the colonial era in the novel of recitals of passage by Maammar Hadjidj as a study sample, it is a culturally and intellectually rich novel that motivates the scholar to take the cultural reading as a critical approach to study it. Additionally, it unveils the cultural structures that lie in the narrative text either they were clear or hidden with the help of the concepts of the other human sciences like psychology, sociology and history according to the needs of the cultural reading from these sciences and its openness to them.*

***Key words:** the image, the Harki, the structures, culture, Maammar Hadjidj.*

* المؤلف المراسل.

مقدمة:

حاولت الرواية الجزائرية في بعدها التاريخي الإحاطة بالأوضاع الاجتماعية والسياسية والإيديولوجية، على فترات زمنية مختلفة تعكس التنوع الحضاري والثقافي للجزائر، ونالت العلاقة بين الذات الوطنية (المستعمَر) والآخر الأجنبي (المستعمِر) في فترة الثورة التحريرية حصة الأسد في الكتابة الروائية، فكانت تعكس بحق صورا للكفاح الوطني والثوري في الجبال والأرياف والمدن وتقدم نماذج راقية للتضحية والفداء، ويمكن القول أن الرواية الجزائرية واكبت كل التحولات الاجتماعية والسياسية والتاريخية في نسيج روائي يحمل بين ثناياه أنساقا ثقافية تتراوح بين المعلن والخفي.

اعتنت التجربة الروائية لمعمر حجيج بالكثير من القضايا التي تراوحت بين البعد التاريخي والتجربة الصوفية والفلسفية والجوانب السياسية والاجتماعية، وقد سلطت رواية معزوفات العبور - نموذج الدراسة - الضوء على الكثير من الأحداث التي جرت قبل الثورة وأثناءها وبعدها، وحاولت استكشاف العلاقة التي تجمع بين الحركي والمستعمِر والثوري.

ومن أجل فهم هذا النص وتقديم قراءة لهذه العلاقة وتداعياتها النفسية والاجتماعية، حاولنا تقديم قراءة ثقافية تعتمد على مقولات النقد الثقافي، الذي كان ظهوره على الساحة النقدية بمثابة مؤشر لتغير أنماط التفكير النقدي، فبدلا من مساءلة الجانب الجمالي/البلاغي نبحث عن مظاهر الأنساق الثقافية وتمظهراتها الخفية والمعلنة على سبيل المثال.

ليكون السؤال الجوهري للدراسة كيف تبدو صورة الحركي في رواية معزوفات العبور؟

- كيف صورت الرواية العلاقة التي تجمع بين الحركي والمستعمِر والثوري؟

- ما أهم الأنساق الثقافية المضمرة بين ثنايا النص؟

من أجل الإجابة عن هذه الأسئلة اعتمدنا على مهاد نظري وجانب آخر تطبيقي وقدمنا خاتمة بأهم النتائج المتوصل إليها.

أولا: مهاد نظري:

احتلت الرواية موقعا هاما بين الفنون النثرية المختلفة، فصارت في الوقت الحالي ديوان العرب ولسان حاله، حيث حاولت بمختلف اتجاهاتها أن تحمل هموم الإنسان العربي، وأن تعالج المشكلات التي باتت تؤرقه و"**الرواية (LE ROMAN) هي جنس أدبي سردي يختلف عن الأسطورة (LE MYTHE) بانتمائها إلى كاتب، وعن الخبر التاريخي بطابعها الخيالي، وعن الملحمة باستعمالها النثر، وعن الحكاية (LE CONTE) وعن الأقصوصة (LA NOUVELLE) بطولها وعن الخبر البسيط بتعقد سرديتها**"[1]، والرواية فن يتسع للماضي بزخمه التاريخي، والحاضر بارتباطه بالواقع وملابسات الحياة اليومية، والمستقبل اللامحدود زمنيا ومكانيا خاصة وأن عنصر التخييل يلعب دورا كبيرا في نسج الأحداث وترتيبها وبناء العالم الروائي، من خلال مرجعيات

مختلفة كالتاريخ مثلا حيث **"تستمد الرواية مادتها الروائية من التاريخ، فتكتب بطرق فنية مختلفة تؤرخ لشخصية من الشخصيات، أو تؤرخ لفترة من الفترات الزمانية فتكون شاهدة عليها. وقد تكون مدينة لتلك الفترة سواء بسبب ما وقع فيها، أو بسبب ما عانته فيها الشخصية الروائية. أو لنقل إنها تؤرخ لوجود إنساني ما، من خلال صراع ذلك الإنسان فتنزع بذلك منازع وجودية شتى. ومن أشهر االروايات التاريخية العربية، روايات جورجي زيدان، وروايات كرم ملحم كرم"**[2]، ونلفت النظر أن الأديب أثناء اشتغاله على عمله الإبداعي لا يقوم بعمل المؤرخ، إذ أن هذا الأخير له أدواته ومبادئه العلمية التي يستند عليها، كما أنه يحاول ملامسة الحقائق الدامغة بالأدلة العلمية والابتعاد عن الخيال والذاتية، وهما من صميم العمل الروائي، ومهما كانت آراء النقاد المتباينة حول الرواية التاريخية **"فليس لنا إلا أن نقر بدورها في تطور الرواية شكلا ومضمونا، وفي إرساء مبادئ التجديد فيها، خاصة أن تلك الرواية ستثور على مقوماتها التقليدية بتقديم متصور جديد للتاريخ والإنسان والمكان ولمختلف الرؤى الجمالية"**[3] والفنية، من ناحية ثانية هناك الكثير من الروايات الجزائرية ذات البعد التاريخي ويمكن أن نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: رواية "شبح الكليدوني"[4] لمحمد مفلاح، رواية "كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد "[5] لواسيني الأعرج. رواية "الديوان الاسبرطي"[6] لعبد الوهاب عيساوي، ورواية معزوفات العبور نموذج الدراسة "معزوفات العبور"[7] لمعمر حجيج.

01/ القراءة الثقافية:

تحاول المقاربات النقدية أيا كان نوعها ومنهجها فهم النصوص الإبداعية، وهي وإن كانت جملة من المبادئ والخطوات فهي في النهاية محصلة للفكر والثقافة والحس النقدي، تحاول الولوج إلى عوالم النص الفسيحة بالبحث عن المعنى وتصيده، وكثيرا ما يلجأ الناقد في حواره مع النص إلى اعتماد مقاربة نقدية قد تكون سياقية بربط النص بعوامل خارجية، أو ما يحيط به مثل بيئة الكاتب أو حالته النفسية، أو الظروف التاريخية المحيطة بالنص، مع عدم الاكتراث بالعنصر اللغوي، أو أن يختار المناهج النسقية التي تركز طاقتها النقدية على البناء اللغوي، لأنه ما يميز النص الأدبي، أو أن يعتمد على القراءات الجديدة التي ظهرت إلى الوجود في فترة ما بعد الحداثة، في محاولة للإمساك بالمعنى من خلال مفهومي السياق والنسق، مع بذل جهد تأويلي وهي فترة تميزت ببروز القراءة والتلقي والنقد النسوي والتفكيكية والنقد الثقافي هذا الأخير الذي من "أبسط مفهوماته ليس بحثا أو تنقيبا في الثقافة إنما هو بحث قي أنساقها المضمرة وفي مشكلاتها المركبة والمعقدة وبذا فهو نشاط إنساني يحاول دراسة الممارسات الثقافية في أوجهها الاجتماعية والذاتية بل في تموضعاتها كافة بما في ذلك تموضعها النصوصي"[8]، وهو يختلف عن النقد الأدبي الذي يبحث في الجماليات الفنية والبلاغية، وفق آليات إجرائية مختلفة.

كما يرى صلاح قنصوة أن النقد الثقافي " ليس منهجا بين مناهج أخرى، أو مذهبا أو نظرية، كما أنه ليس فرعا أو مجالا متخصصا من بين فروع المعرفة ومجالاتها، بل هو ممارسة أو فاعلية تتوفر على درس كل ما تنتجه الثقافة من نصوص سواء كانت مادية أو فكرية، ويعني النص هنا كل ممارسة قولا أو فعلا، تولد معنى أو دلالة"[9] لذلك

فالنقد الثقافي ينفتح على مجالات عديدة كالعادات والتقاليد والأزياء والمراسيم والمثل والحكمة وكل ما من شأنه أن يتعلق بالممارسات اليومية وما هو في حكم المهمل والمهمش وغيرها.

حاول عبد الله الغذامي تقديم رؤية متكاملة تجمع بين الجانب التنظيري والتطبيقي، من خلال كتابه النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، مشددا على محورية مفهوم النسق الثقافي، حيث نجد أن النسق من الناحية اللغوية يأتي بمعنى "(نَسَقَ) الشيءَ – نَسْقاً: نظَمَه. يقال: نَسَقَ الدُّرَّ، ونسَق كُتُبَه. و- الكلامَ: عطفَ بعضَه على بعض."[10]، ويعني في دلالته اللغوية الترتيب والنظام أما من الناحية الاصطلاحية فيؤكد الغذامي على "أن مشروع هذا النقد يتجه إلى كشف حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أقنعة ووسائل خافية، وأهم هذه الحيل هي الحيلة (الجمالية) التي من تحتها يجري تمرير أخطر الأنساق وأشدها تحكما فينا"[11] وحتى يتضح مفهوم النسق يجب فهم الشروط المتعلقة بالوظيفة النسقية التي حدد لها الغذامي مواصفاتها قائلا:

" أ- نسقان يحدثان معا وفي آن، في نص واحد وفي حكم النص الواحد.

ب- يكون المضمر منهما نقيضا ومضادا للعلني(...)

ج- لا بد أن يكون النص جميلا ويستهلك بوصفه جميلا (...)

د- ولا بد أن يكون النص جماهيريا ويحظى بمقروئية عريضة (...)"[12]، وهي جملة من شروط النسق الثقافي حيث تركز القراءة الثقافية على المضمر الثقافي، ومن المهم الإشارة إلى أن النقد الثقافي يعمل "على مهاد متسع من منجزات وتطورات العلوم الاجتماعية والإنسانيات والعولمة وما بعد الحداثة"[13]، ومن أهم العلوم التي يستثمر النقد الثقافي مقولاتها: علم النفس، علم الاجتماع، التاريخ، الفلسفة وغيرها من العلوم.

03/ ملخص الرو اية:

تدور أحداث الرواية في فترتين زمنيتين مختلفتين، وان كانت فترة الاستعمار الفرنسي أخذت حصة الأسد، حيث تبدأ الرواية بوصف حالة المعتقلين الذين يتعرضون لأبشع أنواع التعذيب على يد المستعمِر الفرنسي وأعوانه، وبين الفينة والأخرى يلتقي المساجين فيروي علي البوغزالي الحكايات من أجل الترفيه عنهم ونشر الوعي الثوري في صفوفهم، لاسيما وأنه كان هو وأصدقاؤه – بوحة النية والطاهر الملحن وعليلو المداح- كانوا يجوبون الأسواق وحلقات المساجد وتجمعات الناس المختلفة، يلقون عليهم الحكايات الشعبية وسير الشخصيات التاريخية والثورية مثل حكاية سبع الدوار وغيرها.

هذا النشاط الأدبي جعل عيون الحركى وأعوان المستعمِر ترصدهم وتتعقبهم في محاولة للنيل من الثوار، فكان هناك حضور بارز لشخصية الثوري في مقابل شخصية الحركي الذي باع وطنه، وبعد الاستقلال تصطدم الفرقة بخيبة أمل في أن طموحاتهم لم تتحقق.

والرواية تحمل بين ثناياها نصوصا متداخلة فهي تنفتح على مشاهد مسرحية وحكايات متنوعة ونجد حضورا للعجائبي والخرافي والتاريخ والفلسفة وغيرها.

ثانيا: التطبيق الإجر ائي:

لطالما أسال موضوع الحركى الكثير من الحبر إذ أن الذاكرة التاريخية تحتفظ بالكثير من الصور البشعة، والعنف الأعمى الذي مارسه المحتل الفرنسي وأزلامه في محاولة يائسة للقضاء على وهج الثورة وكسر إرادة التحرر لدى الثوار، فعلى مدى عشرات السنين من طمس للهوية وقضاء على المقومات الثقافية للجزائريين ومحاولات إبادتهم، استفاق الشعب الجزائري وعلم أن الثورة التي نجحت في ديان بيان فو يمكن أن تنجح أيضا في الجزائر.

01/ الحركي وخيانة الثورة:

حاول المستَعمِر تشكيل طابور يدافع عن كيانه المتهالك بسبب ضربات الثوار، فجند الحركى والقومية للقضاء على الثورة وجعل من الإخوة أعداء، ومارس مختلف الإغراءات لتجنيد الجزائريين في صفوفه، وقد حاولت الرواية الجزائرية تسليط الضوء على هذه الفئة التي مارست الخيانة في أبشع صورها، وهو ما تناوله معمر حجيج في روايته معزوفات العبور.

ويحق لنا التساؤل حول هذه الفئة التي شكلت يدا لضرب الثورة، فمن هو الحركي؟

تشير بعض الدراسات التاريخية التي تطرقت إلى موضوع الحركى أن "الحركي Harki- جمعها حركى بالألف المكسورة – Harka لفظة شعبية جزائرية تطلق على فئة من الجزائريين المسلمين الذين انحازوا إلى فرنسا وعملوا مع الجيش الفرنسي ضد الثورة الجزائرية، مما دفع بجبهة التحرير الوطني أن تصنفهم ضمن زمرة الخونة، بمعنى أن مصطلح الحركى في الجزائر صار مرادفا للخيانة العظمى للوطن والدين والأهل"[14]، في فترة احتاجت الجزائر لجميع أبنائها ينسلخ البعض من أجل فتات مادي أو معنوي أو تحت أسباب مختلفة تجعل منهم مجندين تحت الراية الفرنسية ومدافعين على نشيدها الوطني في خيانة مكتملة الأركان "ومما يشرف هذا الشعب أنه بعد تدمير استمر ما يزيد عن قرن وربع قرن وفي وطيس حرب ضروس قل أن شوهد نظيرا لها في البطش والوحشية ومع ذلك فلم تستطع فرنسا أن تجند أكثر من 26 ألف فرد يقبلون القيام بالمهمة المخزية التي أنيطت بهم"[15]، وهم وإن كانوا قلة فإن دورهم في تسليط الظلم على إخوانهم الجزائريين كان لا يطاق وشاركوا في المحرقة التي أشعلتها فرنسا، من خلال تقديم المعلومات الاستخباراتية والمشاركة في عمليات الإبادة والتعذيب.

02/ سيكولوجية الحركي:

حاولت رواية معزوفات العبور بين ثناياها أن تقدم صورة للحركي الذي لا يهتم لوطنه ولا لبني جلدته من خلال شخصيات متنوعة، لتظهر الحالة النفسية للحركي.

تبدو نفسية الحركي مهزومة ومهزوزة إذ أنها شخصية انتهازية لا يهمها إلا نفسها بل كل ما تريده هو مكاسبها ومنفعتها الشخصية، والحفاظ على برنوس الخيانة عن طريق النفاق مثل نصائح القايد لابنه " يجب عليك أن تمرن نفسك أكثر لتتقن فن الكلام مع الحكام، وبديهة الرد على الأسئلة المفاجئة المبطنة الخبيثة، فخشاش

الأرض، وسقط المتاع من الناس لا يرحمونكم، وأوصيك ألا تجعل عقلك يتمرد على مصلحتك، ولا تحتكم إلى قلبك حين تسكنه العواطف السخيفة، ولا تتعب نفسك في استفتاء أي شيخ،فالحلال ما كان في صالحك، ويصدر من عقل من ينصحك بالمحافظة عل (برنوس) القيادة الأحمر، والحرام ما كان ضدك، ويصدر من عقل من يريد نزعه منك"[16]، ضاربا بالقيم الدينية والمبادئ الإنسانية عرض الحائط، فلا تهمه إلا مصالحه الشخصية والحفاظ على مكانته عند الفرنسيين بالحفاظ على سلطة القايد، ليكمل إرشاداته "وكن دائما مع القوي، وأما الضعيف فقدم له اللقمة ولا تتركه يشبع، ودس عليه لتمحو بها تفاعل اللقمة التي تحوله إلى ذئب يضمر لك الشر، وتنزع منه سموم الحسد الكامنة في داخله، وتمنعه من التمرد،"[17]، لنجد أنفسنا أما حالة نفسية مقهورة تحاول أن تلتصق بالقوي الذي يحدد مصيرها، وتصبح يده التي يبطش بها ضد إخوانه واحتقاره لهم من خلال محاكاة المستعمِر في جبروته وظلمه، لأنه مجرد تابع أو عبد أمام السيد إذ "لا يجد الإنسان المقهور من مكانة له في علاقة التسلط العنفي هذه سوى الرضوخ والتبعية، سوى الوقوع في الدونية كقدر مفروض. ومن هنا شيوع تصرفات التزلف والاستزلام، والمبالغة في تعظيم السيد، اتقاء لشره أو طمعا في رضاه"[18]، بل لا يتوانى في التماهي مع سيده والتشبه بساديته، بل يتفوق عليه أحيانا من خلال التسلط على إخوانه من بيئته ومجتمعه، في حالة شاذة أشبه بالمرض النفسي الذي يجعل وجودهم مرتبطا بالمستعمِر فقد "كان (الحركى)، و(الكولون)، والمرتزقة أكثرهم فحشا ونذالة وينشدون بألسنة حداد تقذف بأوساخ من زبالة أفواههم، وقلوبهم المتقيحة، ويغنون، ويرقصون رقصة التشفي والمكر، والأحقاد أمام جثمانه الطاهر.."[19]، أي جثمان الشهيد سبع الدوار على حد قول علي البوغزالي بطل الرواية الذي نال حصته من التعذيب في سجن فاج.

من ناحية ثانية يمثل الحركي النموذج الأمثل الذي يريده المستعمِر، لأنه يغذي وهم التفوق الغربي على المستعمَر وقدرته على التحكم فيه وإدارة مصالحه المادية لذلك يعمل "على تغذية عقدة النقص والعجز (...)، يكفي أن نرى ما يحاوله المستعمِر عادة من غرس مشاعر النقص في الشعوب التي يستغلها، من ناحية، وغرس وهم تفوقه عليها علما وفنا وتقنية وحياة لدرجة التضليل"[20]، وهو ما جسدته كلمات القايد الذي اهتزت مكانته عند مسيو جوزيف بسبب ما فعله المجاهد سبع الدوار بهم فيخاطب هذا الحركي علي البوغزالي:

"لا أفهم ما يجري؟ أتريدون أن يخلع الفرنسيون مني برنوس القيادة الأحمر إذا شعروا باهتزاز هيبتهم؛ ومن ثم أفقد كل امتيازاتي، وأصبح شحاذا، وقوالا مثلك، ومثل أصحابك في الأسواق؟ لا أسمح لكم أبدا باللعب بمستقبلي، ومكانتي عند الفرنسيين أصحاب القانون، والتقدم، والعلم.."[21]، حيث تعشش أوهام القوة والمكانة في ذهن الحركي، الذي تبلغ منه السادية مبلغا تجعل منه أشد قسوة من الفرنسي ذاته، في تركيبة نفسية عجيبة وتطبيق حرفي للأوامر، خاصة حين رأى الحركي تعاطف أحد الجنود الفرنسيين مع علي البوغزالي أثناء تعذيبه حيث "قال له (الحركي):أنا سألقي به ككيس من الزبالة النتنة، وسأبول عليه، وأنت ادخر عواطفك النبيلة لحبيبتك حين تعود إلى فرنسا، أنسيت وصية الكولونيل فيلسوف الأقوياء(القوت ثمنه السكوت، والصوت ثمنه الموت)؟"[22]، يمارس الحركي دور الجلاد على المعتقلين في حالة من النشوة والتجرد من العواطف والأخلاق، ليثبت جدارته أمام المستعمِر "لذلك يعيش الجلاد دائما تحت السيف المسلط على رأسه في أن يستغنى عنه بعد أن يفشل، ويتحول إلى مجرد نكرة. وهو ما يصعد من ساديته فيما ينزله من تعذيب بضحاياه، كي يحتفظ بمكانته

كأداة فعالة لخدمة أسياده. إنه منخرط في حلقة جهنمية من هوس العنف، مقابل هاجس الضعف وانعدام القيمة"[23]، حيث يتعمق نسق الدونية في نفسية الحركي المريضة المتماهية مع سيدها في تصرفاتها وساديتها تجاه الضعفاء، بل هم أكثر فحشا لإخفاء حالة الضعف النفسي والانهزامية والدونية، كما أن الحركي هو النموذج المفضل للسيد (المستعمِر) القابل للترويض والرضوخ تحت وطأة القهر والخوف أو حب المال والمناصب، وهو ما حاولت رواية معزوفات العبور تصويره.

03/ ثنائية السيد/العبد:

حاولت القوى الاستعمارية الغربية السيطرة على مناطق واسعة من العالم من أجل توفير موارد طاقوية وبشرية من أجل استغلالها في بناء حضارتها، وانتهجت في سبيل إشباع نهمها المادي أبشع صور الاستغلال للعنصر البشري –المستعمَر- ودفعه إلى الاعتراف به كسيد للبلاد والعباد، وهي العلاقة لتي تعرض لها فرانز فانون في كتابه معذبو الأرض حيث يقول: "إن العلاقات بين المستعمِر والمستعمَر هي علاقات جماعة بجماعة، والمستعمِر يقاوم كثرة العدد بكثرة القوة، إن المستعمِر إنسان مصاب بداء الميل إلى العرض واهتمامه بسلامته يحمله على أن يذكر المستعمَر جهارا بأنه هو السيد: ((أنا السيد))"[24]، والآخر هو العبد المطيع لسيده، هذه هي طريقة المستعمِر في تكريس التبعية والإذلال وتعميق نسق الدونية. حيث تناول النص الحجيجي هذه العلاقة من خلال ما جاء على لسان الضابط الفرنسي أثناء تعذيبه لبوحة النية:

"أنتم العرب جنس أحقر حتى من الخنافس، ولن يقول التاريخ عنكم شيئا لأن التاريخ يصنعه الأقوياء من البشر، وأنتم لم تصبحوا بعد بشرا، وحتى لو رأفت بكم الطبيعة، وصنعت منكم بشرا، وهذا مستبعد جدا، فلن تصعدوا إلى منزلة الأقوياء أبدا"[25]، حيث حاولت الرواية تصوير هذه العلاقة المتوترة بين الحركي ومن خلفه المستعمِر، والآخر ممثلا في المجاهدين ومن خلفهم الشعب الجزائري، وهي علاقة تحكمها ثنائية (السيد والعبد)؛ حيث يعتقد المستعمِر أنه يملك مقومات الحضارة والتطور، وأن ما دون ذلك فهم من طبقة أخرى تعشش فيها الخرافة والأفكار البالية، فضلا أن يملكوا مقومات الرقي الإنساني حيث "تمضي هذه الثنائية أحيانا إلى أقصى منطقها، فتجرد المستعمَر من إنسانيته، حتى لتعده حيوانا. أنظر إلى هذه اللغة التي يتكلمها المستعمِر عن المستعمَر، تجد أنها اللغة المستعملة في وصف الحيوانات: إنهم يستعملون هذه التعابير: زحف العرق الأصفر، أرواث المدينة الأصلية، قطعان الأهالي، تفريخ السكان، تنمل الجماهير، الخ"[26]، على حد قول فرانز فانون الذي أكد على الدور الذي يلعبه المستعمِر في تعميق نسق الدونية في نفسية المستعمَر واحتقاره وتجريب كل أنواع الإذلال، وهو ما تلقاه بوحة النية المجاهد الذي اعتقل وتعرض لكل أنواع الإذلال على يد الضابط الفرنسي وأعوانه من الحركى، حيث يأمرهم الضابط الفرنسي بقوله: "أنتم أمام كائن أدنى حتى من الحيوان، لا ترفقوا به، بل نسلوا شعره، وشرحوا جسده، واتركوه كالدجاجة التي ألقيت في أكاديمية أفلاطون لتبطل فهمه للإنسان، فالإنسان الكامل هو الإنسان الأشقر، ما أنصفك يا مجادل أفلاطون !"[27]، لذلك تقوم فلسفة المستعمِر (السيد) على التفوق العرقي – الإنسان الأشقر- وهو وحده من يستحق الحضارة واستغلال خيرات البلاد بما فيها الإنسان المختلف عرقيا، لأن دوره يختزل في أنه مجرد عبد يطيع الأوامر.

وفي حكاية سبع الدوار الذي اختطف ابن الرومي (الكولون) حتى يحرر شباب قريته ويثأر لابنته، لا يجد الكولوني إلا الحركى المطيعين لسيدهم لإلقاء القبض على سبع الدوار حيث يقول:"سأكلف (القايد) و(الشامبيط)، و(الوقاف) بحل مشكلتي.. سأغريه بكيس من النقود .. إنهم متعطشون للمال لكي يتسلط بعضهم على بعض.. هم يتلذذون، ويفرحون حين نفرق عليهم فتاتا من التسلط الوهمي الفارغ الموجه إلى زمرتهم.. أما التسلط الحقيقي، فيبقى لنا وحدنا. هكذا قال لنا الضابط العسكري في الأحد الماضي"[28]، وهي نظرة ازدراء واحتقار حتى للحركي بالرغم من طاعته العمياء فالسيد – المستعمِر- يعلم مدى حبهم للمال والسلطة وشخصيتهم الانتهازية كما يمكن تخويفهم بالقوة التي يملكها.

يشارك الحركى في تعذيب المجاهدين واستنطاقهم كما فعلوا مع بوحة النية الذي نال حصته من التعذيب والشتائم من طرف الحركي في معتقله، حيث كانت كلماته "ممزوجة بالعبودية لأسياده، ملفوفة بذل، وحقارة، وخيانة، ونذالة: اسكت يا صعلوك لقد غررت بنا زمانا، واستغللت طيبتنا، وجهلنا. لقد عرفنا حقيقة من هو الأقوى، فلا تخدرني مرة ثانية بكلامك المعسول. فرنسا هي مستقبل الرجال الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف."[29]، فالتمركز مع الأقوى والخضوع له سمة تميز الحركى عن غيرهم، كما أنهم يستبعدون فكرة الاستقلال والتحرر ويعتبرونه مجرد وهم يتشبث به الضعفاء، في محاولة للسيطرة عليهم، وهي أشبه بـ" عملية التماهي بأحكام المتسلط، باجتياف عدوانيته وتوجيهها إلى الذات على شكل مشاعر ذنب ودونية وتبخيس للقيمة الذاتية. إنه ينخرط في عملية حط من قيمته، وقيمة الجماعة التي ينتمي إليها. وبقدر ما يذهب بعيدا في هذا الاتجاه، فإنه يعلي من شأن المتسلط ويبالغ في اعتباره وفي تثمين كل ما يمت إليه بصلة"[30]، من خلال العمل مع المستعمِر والانتقام من الثوار وإبادة الشعب الجزائري، على حد قول علي البوغزالي الذي يصف عملية ناجحة قام بها الثوار قائلا: "كان (الحركى)، والمجندون من أبناء (الكولون) ينتظرون انتقاما شرسا، وشنيعا من العملية التي اندحروا فيها لا يقل عن الإعدام الجماعي لكم حرقا بالنيران، وللشعب كله في تلك الناحية"[31]

ناهيك عن اعتقال الأبرياء وتعذيبهم والدفاع عن المصالح الاستعمارية حيث "تبلغ العلاقة مع المتسلط في هذه الحالة أشد درجات السادو مازوشية: قبول التسلط والرضوخ له، في جو من الإفراط في رهبة جانب المتسلط والإعجاب به في آن معا. وينتج الإفراط هذا عن ظاهرة انشطار القيمة الإنسانية. توجه كل القيم الايجابية (القوة والمنعة والتفوق) إلى المتسلط، وكل القيم السلبية إلى الإنسان المقهور"[32] فهو مجرد عبد ينتظر أوامر السيد وحتى يتمكن الحركي من إعلاء الأنا فإنه يتشبه بسادية المستعمِر وعنفه.

04/ القابلية للاستعمار/ رفض الاستعمار:

يعد الحركي المثال الذي يريد المستعمِر ترسيخه في الشعوب المستعمَرة، سواء من خلال ترسيخ ثقافته الغربية التي يسوق لها على أنها البديل الأمثل للثقافة المحلية لهذه الشعوب، أو العمل على إخضاعه بالقوة وترهيبه، والهدف الأساسي هو نهب الثروات واستغلال الإنسان المستعمَر أبشع استغلال.

والسمة البارزة على الحركي هو حالة الاغتراب التي يعيشها وتجعله ينفصل عن مجتمعه وقيمه ذلك أن الاغتراب "في اللغة العربية: أن يغترب يعني أن "يكون الآخر". وفلسفيا: يفيد عملية تحويل منتجات النشاط الإنساني والاجتماعي إلى شيء مستقل عن الإنسان ومتحكم فيه"[33]، ليصبح أشبه بآلة في يد المستعمِر يتحكم فيها ويضرب بها من يرفضون الاستعمار أو المستضعفين وتجعل منه إنسانا فاقدا لذاته، يتماهى في الآخر المستعمِر أو بمعنى تشييء الإنسان وتجريده من كل أحاسيسه ومشاعره من أجل استغلاله، وبصفة عامة الاغتراب "يدور في مدارات مفهوم (الفقد) سواء بفقدان الإنسان إنسانيته أو فقدانه السيطرة على الأشياء أو المعتقدات التي صنعها، وتشييئه أو فقدان الفرد انتمائه لمجتمعه أو فقدان الملكية الاقتصادية وكذا فقدان الملكة الذهنية، وهو ما يحيل إلى شعور الذات بالنقصان والعوز والضياع والتوتر واللاانتماء أو مفهوم الانقطاع أو الانسلاخ عن الأشياء أو الواقع المادي اتصالا بعالم مثالي مفارق"[34] وهو ما يؤكده الحركي السبتي في قوله: "الفار ما يعمل عولة والعربي ما يدير دولة" .. يحيا السبتي قاهر الألمان، تحيا الدولة الفرانسوية، لولاها لما كانت لنا دولة، ولما كنت بهذه النياشين على صدري أميرا من أمراء لآخر الزمان"[35]، في حالة تعبر عن احتقار للذات وإعلاء للآخر بل وهي تعبير عن القابلية للاستعمار حيث يؤكد مالك بن نبي "أن الاستعمار لا يتصرف في طاقتنا الاجتماعية إلا لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة، وأدرك منها موطن الضعف، فسخرنا لما يريد، كصواريخ موجهة، يصيب بها من يشاء، فنحن لا نتصور إلى أي حد يحتال لكي يجعل منا أبواقا يتحدث فيها، وأقلاما يكتب بها أنه يسخرنا وأقلامنا لأغراضه، يسخرنا له، بعلمه، وجهلنا"[36]، لذلك فالمستعمِر يستغل جيدا حالة القهر التي يعاني منه المستعمَر من أجل استعباده واستغلاله أبشع استغلال.

ذلك " أن الإنسان المقهور، في هذا النوع من التماهي، هو ضحية عملية غسل دماغ مزمنة يقوم بها المتسلط. فهذا الأخير سواء كان محليا أم أجنبيا يشن حربا نفسية منظمة لتحطيم القيم الاجتماعية والحضارية للفئة المقهورة، تؤدي إلى تبخيس وازدراء كل ما يمت إلى عالمها بصلة. كما تزين لها قيم المتسلط، أسلوب حياته، أدواته، تقنياته كطريقة وحيدة ذات اعتبار في الحياة"[37]، وإلغاء كل الموروث الثقافي المحلي الضارب في الزمن واحتقاره وجعله بمثابة مصدر للتخلف والتقهقر.

في المقابل نجد في الرواية شخصية الجزائري الرافض لأشكال الهيمنة الاستعمارية، ويعلن عن عدم الخضوع لها وازدرائه للحركى، فعلي البوغزالي وبوحة النية ونوح المربوح والطاهر الملحن شكلوا فرقة لبث الوعي الثوري في صفوف الشعب الجزائري، عبر حلقات المساجد والأسواق والساحات العامة وتعرضهم لأشد أنواع التنكيل على يد المستعمِر وزبانيته من الحركى، حيث يقول علي البوغزالي: " صاح القايد في وجوهنا والغضب يعصر أعصابه، فيحمر وجهه، ثم يسود، كأنه خرج توا من فرن الآجر: أيها القوال الدجال، ألم أحذرك مرارا لتتوقف عن إفساد الناس علينا، وأن تتركهم وشأنهم؟ أنت تريد أن تزور السجن مرة أخرى"[38] ناهيك عن التعذيب الذي يتعرضون له في السجون فهذا بوحة النية الذي ألقي عليه القبض وخاطبه الضابط الفرنسي قائلا: "سأقطع لك ما يفقدك رجولتك، ويستأصلك، ولن تنجب بعدها مخلوقات هابطة، ووقحة مثلك. وأمر أعوانه بالتنفيذ، فسمع المعتقلون صراخا غير معهود"[39]، والرواية حافلة بالكثير من الشواهد التي تصور سادية المستعمِر وأعوانه من الحركى والحقيقة أنّنا أمام ذواتين ذات منفعلة مهزومة ومهزوزة، تحاول محاكاة السيد – المستعمِر- في ساديته

وجبروته والتسلط على إخوانه من الجزائريين ومن خلال الرواية نجد تعمق نسق الدونية فيها، ذلك أن تفكيرها المحدود والمتمحور حول السلطة والمكانة المادية يجعلها نفسا لها القابلية للاستعمار، خدمة لمصالحها الضيقة وقبولها للهيمنة في محاولة لتعويض حالة القهر، وذاتٌ فاعلةٌ تجعل من صدق الكلمة طريقا لنشر الوعي بأن هزيمة المستعمِر قريبة وأنّ فجر الاستقلال قد لاح في الأفق، ومحاولة كسر الهيمنة الاستعمارية ويتجسد ذلك في قول علي البوغزالي "ترى في الكلمة المسئولة، والشعر الصادق دواء لكل النفوس المقهورة، ولا تظهر نجاعتها الشافية الكافية إلا إذا ترجمت إلى أفعال، وهما علاجان مؤقتان للأوجاع، ونسيان صور المعاناة من سجون المقادير في المطامير ورشف ألوان من القهر والتنكيل، والزج بالأرواح في أتون النيران"[40]، وهو تعبير عن المقاومة الثقافية لحالة اليأس التي يحاول المستعمِر زرعها في المستعمَر، والحقيقة أنّنا أمام نسقين متضادين: نسق لقابلية الاستعمار ويمثلها الحركي الذي له خصائص سيكولوجية واجتماعية تبرز من خلال علاقة التنافر مع أفراد المجتمع، ونسق المقاومة الثقافية يمثلها الثوار والشعب الجزائري الداعم للثورة.

05/ نسق الدونية كصورة للقابلية للاستعمار:

لا يترك المستعمِر فرصة للمستعمَر للحوار الحضاري أو فكرة التعايش، بل يحاول دائما السيطرة على مقدراته وثرواته وطمس هويته، وجعله مجرد تابع أو مغلوب على أمره، لذلك حاولت رواية معزوفات العبور تصوير لحظات انسلاخ الإنسان عن مجتمعه وهويته الأصلية، بل لا يتوانى في الدفاع عن الآخر والحط من أنَّاه ليكون نسق الدونية صورة للقابلية للاستعمار.

فإذا عدنا إلى معجم اللغة العربية المعاصرة نجد" دُونِيَّة [مفرد]: مصدر صناعي من دُون: خِسَّة ودناءة."[41]، فهذه الخسة التي اصطبغت بها نفسية الحركي يرى علم النفس أنها "الشعور بالنقص والضعة، (...) لكنه شعور يحفز المرء دوما ويحركه لبذل جهود من شأنها انتزاع الاعتراف من الآخرين. "[42]، لكن الآخر هو المستعمِر الذي يريد الحركي أن يثبت جدارته وقدرته على خدمته، بل والتفوق عليه في ساديته وجبروته، حيث يرى آلفرد أدلر أن "كل هذه الحالات التي تتكون فيها عقدتا النقص والتفوق يكون فشل الشخص في توجيه قواه وجهات اجتماعية صالحة ناشئا من افتقاره إلى الشجاعة. وافتقاره هذا هو الذي يصده عن إتباع الطريق الاجتماعي. ويقترن بنقص الشجاعة عجز الفرد من الناحية العقلية عن إدراك ضرورة إتباع المنهج الاجتماعي والفائدة التي تعود من إتباع هذا المنهج"[43]، وهو ما يفسر الفشل الذريع للحركي في التعامل مع مجتمعه، والخروج عن أسسه الاجتماعية وقيمه الثقافية والدينية. إنه انسلاخ الأنا عن الأنا الجمعي ومحاولة ليكون الآخر المختلف القوي والغازي ليبلغ بها التطرف إلى أقصى مداه حيث تتجاوز عنف المستعمِر وساديته.

خاتمة:

من خلال رواية معزوفات العبور حاولت الذات الساردة تقديم صورة واضحة للحركي الذي كان له دور سلبي أثناء ثورة التحرير لنخلص إلى النتائج التالية:

- شكلت شخصية الحركي حالة نفسية استثنائية، تتميز بحالة من الانهزامية وتعمق عقدها النفسية، فمن أجل الفكاك من حالة القهر والدونية، حاولت الالتصاق بالآخر القوي – المستعمِر- من أجل تعويض عقدها النفسية.

- أوضحت صورة الحركيِ بما لا يدع للشك محاولات المستعمِر إلى غرس وهم تفوقه العرقي، على غيره من الشعوب المستعمَرة حيث لخصت ثنائية السيد/العبد توجهاته الكولونيالية وسقوطه الأخلاقي.

- يعد الحركي أهم نموذج تم صناعته من طرف المستعمِر حيث شكلت حالة التماهي والمحاكاة واتحاد الحركي بالمستعمر نموذجا غريبا للانسلاخ عن مقومات الأمة.

- شكل نسق دونية الحركي صورة معبرة عن حالة القابلية للاستعمار، حيث يعيش الحركي حالة من الاغتراب السلبي عن مجتمعه وقيمه الدينية والإنسانية.

قائمة المصادروالمراجع:

1. أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008م .
2. أسعد رزوق، موسوعة علم النفس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط، 1987م.
3. الفرد آدلر، الحياة النفسية تحليل علمي لشخصية الفرد، ت، محمد بدران، أحمد محمد عبد الخالق بك، الأهلية للنشر والتوزيع. الأردن، ط1، 2020م .
4. جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، دط، 1994م .
5. رضا عطية، الاغتراب في شعر سعدي يوسف، قراءة ثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 2018م.
6. سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية، لبنان، دط، دت .
7. صباح البار، لمياء بوقربوة، تجنيد فرق الحركى والقومية ضمن الجيش الفرنسي أثناء الثورة الجزائرية(1954-1962) مجلة آفاق علمية، المجلد13، العدد05، 2021م، ص17. نقلا عن(Benjamin stora les mot de la guerre dAlgerie Ed PUM 2005 p19)
8. صلاح قنصوة، تمارين في النقد الثقافي، دار سيريت، القاهرة، ط1، 2002م .
9. عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط، 2005م .
10. عبد الوهاب عيساوي، الديوان الاسبرطي، دار ميم للنشر، الجزائر، ط6، 2020م .
11. فرانز فانون، معذبو الأرض، ت، سامي الدروبي، جمال أتاسي، مدارات للأبحاث، مصر، ط2، 2015م .
12. مالك بن نبي، شروط النهضة، ت، عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، دط، 1986م .
13. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004م.
14. محمد مفلاح، شبح الكليدوني، دار المنتهى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2015م.
15. مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط5، 2007م.
16. مصطفى حجازي، الإنسان المهدور، دراسة تحليلية نفسية اجتماعية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2005م.
17. مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط5، 2005م.
18. معمر حجيج، معزوفات العبور، دار قانة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016م، ط1.
19. منصور قيسومة، اتجاهات الرواية العربية الحديثة في النصف الثاني من القرن العشرين، الدار التونسية للكتاب، تونس، ط1، 2013م.
20. واسيني الأعرج، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2008م.

هوامش وإحالات المقال

[1]- منصور قيسومة، اتجاهات الرواية العربية الحديثة في النصف الثاني من القرن العشرين، الدار التونسية للكتاب، تونس، ط1، 2013م، ص5.

[2]- المرجع نفسه، ص11.

[3]- المرجع نفسه، ص16.

[4]- محمد مفلاح، شبح الكليدوني، دار المنتهى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2015م.

[5]- واسيني الأعرج، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2008م.

[6]- عبد الوهاب عيساوي، الديوان الاسبرطي، دار ميم للنشر، الجزائر، ط6، 2020م.

[7]- معمر حجيج، معزوفات العبور، دار قانة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016م، ط1.

[8]- سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية، لبنان، دط، دت، ص303.

[9]- صلاح قنصوة، تمارين في النقد الثقافي، دار سيريت، القاهرة، ط1، 2002م، ص05.

[10]- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004م، ص918.

[11]- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط، 2005م، ص77

[12]- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية 77-78.

[13]- صلاح قنصوة، تمارين في النقد الثقافي، ص6.

[14]- صباح البار، لمياء بوقريوة، تجنيد فرق الحركى والقومية ضمن الجيش الفرنسي أثناء الثورة الجزائرية(1954-1962) مجلة آفاق علمية، المجلد13، العدد05، 2021م، ص17. نقلا عن(Benjamin stora les mot de la guerre dAlgerie Ed PUM 2005 p19)

[15]- جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، دط، 1994م، ص275.

[16]- معمر حجيج، معزوفات العبور، دار قانة للنشر والتوزيع، ط، 2016م، ص91.

[17]- معمر حجيج، معزوفات العبور، دار قانة للنشر والتوزيع، ط، 2016م، ص91.

[18]- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط5، 2005م، ص39.

[19]- معمر حجيج، معزوفات العبور، ص98.

[20]- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، ص46.

[21]-معمر حجيج، معزوفات العبور، ص127.

[22]- معمر حجيج، معزوفات العبور، ص147.

[23]- مصطفى حجازي، الإنسان المهدور، دراسة تحليلية نفسية اجتماعية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2005م، ص156.

[24]- فرانز فانون، معذبو الأرض، ت، سامي الدروبي، جمال أتاسي، مدارات للأبحاث، مصر، ط2، 2015م، ص53

[25]- معمر حجيج، معزوفات العبور، ص118.

[26]- فرانز فانون، معذبو الأرض، ت، سامي الدروبي، جمال أتاسي، مدارات للأبحاث، مصر، ط2، 2015م، ص44.

[27]- معمر حجيج، معزوفات العبور، ص117.

[28]- معمر حجيج، معزوفات العبور، ص124.

[29]- معمر حجيج، معزوفات العبور، ص148.

[30]- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، ص127.

[31]- معمر حجيج، معزوفات العبور، ص168.

[32]- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، ص127-128.

[33]- مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط5، 2007م، ص75-76.

[34]- رضا عطية، الاغتراب في شعر سعدي يوسف، قراءة ثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 2018م، ص16

[35]- معمر حجيج، معزوفات العبور، ص181.

[36]- مالك بن نبي، شروط النهضة، ت، عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، دط، 1986م، ص155.

[37]- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، ص133.

[38]- معمر حجيج، معزوفات العبور، ص126.

[39]- معمر حجيج، معزوفات العبور، ص118.

[40]- معمر حجيج، معزوفات العبور، ص160.

[41]- أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008م، ص792.

[42]- أسعد رزوق، موسوعة علم النفس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط، 1987م، ص123.

[43]- الفرد آدلر، الحياة النفسية تحليل علمي لشخصية الفرد، ت، محمد بدران، أحمد محمد عبد الخالق بك، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2020م، ص146.